

إعجاز القرآن في منطق النمل والطير.

أ. عبد المهيم امحمد محمد خماس - كلية الآداب - جامعة الزاوية .

المقدمة :

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله تحاول هذه الوريقات تحسس وميض من الإعجاز القرآني في حياة بعض الحيوانات ، اجتهد فيها مسودها، محاولاً الربط بين ما توصل إليه العلم الحديث والنص القرآني ، وهو على كامل اليقين بأن الاجتهاد البشري في العلوم والمعارف لا يقارن ولا يقارب النصوص الشرعية ، وما محاولته إلا طلباً للفهم ورغبة في المعرفة ، لا لإخضاع النصوص الشرعية للنظريات المبنية على الافتراضات والتخمينات. وتطرقت هذه الوريقات لكيفية التخاطب بين الطيور بعضها بعضاً ، وكذلك لوسائل التواصل بين أفراد خلية النمل ، واعتمدت على عدد يسير من المصادر التي تعنى بهذا الشأن ، فإن تم توفيق فمن الله، وإلا يكن فللقصور البشري والضعف المعرفي في كاتب هذه الأسطر، والله المرجو أولاً وآخرأ.

أممية المخلوقات :

جاء تصريح واضح في القرآن الكريم بأن جميع المخلوقات لها مجتمعها الخاص ، قال الله - تعالى - : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (1) ، فجميع الكائنات أصناف ، وكل صنف سواء من الدواب والطيور مثل بني آدم في المعرفة بالله، وطلب الغذاء ، وتوقّي المهالك (2)، وقد نقل ابن العربي الإجماع على أن للبهائم عقولاً وأفهاماً (3)، والعقول والأفهام مدعاة للتواصل والاجتماع.

سلوك الحيوان في القرآن الكريم

خص الله نبيه سليمان - عليه السلام - بملك عظيم ، ومنحه نوع علم لم يؤتته أحد قبله، ولا حتى بعده، قال الله - تعالى - : (وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) ، وفي موضع آخر يبين ربنا دقيق هذا الفضل فيقول - سبحانه- : (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ⁽⁴⁾، وفي هذه السورة - أيضاً - تصريح بمحادثة بين نبي الله وطائر الهدد، قال الله : (فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِنَّتْكَ مِنْ سَبَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ) ، وقال : (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) ، أشارت هذه الآيات إلى أن للطير منطقاً، وصرحت بأن له معنى يفهم كما في كلام الهدد ، وللنمل لغة يتخاطبون بها يسرون أمورهم من خلالها.

وذهب المفسرون في قول الله - تعالى - : (مَنْطِقَ الطَّيْرِ) إلى أنه بمعنى الصَّوْتِ الْمُشْتَمَلِ عَلَى حُرُوفٍ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ⁽⁵⁾ ، أو أنه قد يطلق على ما يفهم ولو بغير كلام⁽⁶⁾ ؛ بل هو أي صوت ولو لم يفد معنى⁽⁷⁾ . لا يؤثر هذا الاختلاف في حقيقة أن للطيور وسائل للتواصل والتفاهم ، ومعرفة ذلك لا ينافي الإعجاز الخاص بسليمان - عليه السلام - ، ففرق بين وجود الشيء وبين إدراكه وفهمه.

إن هذا الاختلاف في مدلول الآية سعة يشمل أي وسيلة تواصل يمكن أن تستخدمها الحيوانات فيما بينها، مع أن لفظ القول المنسوب إلى النمل والهدد معروف المعنى في لغة العرب ، والعدول عنه إلى غيره يحتاج برهاناً وبينة.

السنة النبوية وسلوك الحيوان:

تظهر للمخلوقات مشاعر وأحاسيس يعرفها من لازمها فخير أحوالها ، يشهد لذلك قصة صاحب الجمل الذي عندما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - حنَّ له وذرفت عيناه ، فمسح عليه - صلى الله عليه وسلم - فسكن ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ: أُرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسْرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِحَاجَتِهِ هَدْفًا أَوْ حَائِشًا نَخَلَ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ إِلَيْهِ، وَزَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذَفْرَتَهُ فَسَكَنَ فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ قَالَ: فَجَاءَ فَنَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: " أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا لِي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْنِبُهُ " (8) ، وقصة الحمرة التي صارت تصيح أمامه . عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي سَفَرٍ وَمَرَرْنَا بِشَجَرَةٍ فِيهَا فَرْخَا حُمْرَةٍ فَأَخَذْنَا هُمَا قَالَ: فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ

إلى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهِيَ تَصِيحُ فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِفَرْخَيْهَا؟ » قَالَ: فَقُلْنَا: نَحْنُ. قَالَ: «فَرُدُّوهُمَا» (9) .

نظرة علماء الأحياء لتواصل الحيوان:

نشأ في علم الأحياء مجال يقصر دراسته على السلوك الحيواني ، يعرف عندهم بـ (علم سلوك الحيوان)، يقر بوجود وسائل اتصال تستخدمها الحيوانات لتسيير أمورها، يقول - أحد أهل الاختصاص- : " ... السلوك المناسب يساعد على ضمان نجاح الحيوانات في معظم الوسائل المهمة للنوع ، مثل التغذية، البحث عن المأوى، السكون، التعرف على الأعداء ، الهروب من الأعداء، الحفاظ على البقاء العام والتكاثر... " (10).

وقد أسفرت الدراسة العلمية الحديثة عن وجود أنظمة سرية تتواصل بها الحيوانات، يشبه بعضها لغة الإنسان من وجوه عدة، يجعلها بعضهم قائمة على أمرين : المؤثر، ويعني به كيفية التنبيه والاستثارة ، والاستجابة : وهي كيفية استقبال وتلقي المعلومة وفهمها (11).

لغة النمل في العلم الحديث:

إذا كان كثير من تصرفات الحشرات يعد نوعاً من الجنون عند بعض الناس ؛ لكن توقيت حركتها وكيفية الظروف المحيطة بالحشرة حينها يشير إلى أن تصرفاتها ذات دلالات وأهداف ، وهو ما قرره (كليفورد. ج . دينيس) (12) .

ويرى علماء الأحياء أن هناك تشابهاً كبيراً بين النمل والبشر، فهو يبني المدن ويشق الطرق ، ويحفر الأرض ليخزن فيها الطعام ؛ بل إنه ينشئ الحدائق ويزرع النباتات ، حتى إنه يستأنس أنواعاً من الحشرات ، وتنشأ بين أنواعه الحروب التي تخلف الأسرى (13).

وفي ذات المعنى يتحدث عالم انجليزي عن مشاهدته لسرب من النمل فيقول : " ... وحينما ظهر ما يعوق سير الطابور علم به أفراد النمل الذي يبعد عن هذا العائق بنحو مائة ياردة خلال عشر ثوان ، أما كيف سرت الأبناء بهذه السرعة؟! فالنمل وحده الذي يعلم " (14).

وتختلف وسائل تواصل النمل مع بعضه باختلاف الظروف ، واختلاف المتواصل معه، فهو يستخدم الإفرازات الكيميائية، ما يسمى بـ (الفرمونات)، تستطيع من خلالها التعرف على بعضها، والتفرقة بين عدوها وصديقها ، وتزداد هذه الإفرازات عند الإحساس بالخطر، ويمكنها - أيضاً - إرسالها روائح تنفذ عبر الأنفاق وتعبّر الممرات

الضيقة في الأرض ؛ لتستقبلها حشرات النمل الأخرى بواسطة (رادار فرموني) تفهم من خلاله المراد من هذه الرائحة(15) .

وتلجأ حشرات النمل إلى التواصل الحركي عبر التلامس الجسدي ، وإلى تواصل صوتي يتم عبر ذبذبات كالصرير، تلتقطها خلايا سمعية في أرجل كل واحدة من النمل ، يقول زغول النجار عنها : " .. للنمل قدرة على التخاطب ، إلا أنها تبقى دون اللغة التي سمعها سليمان – عليه السلام - وفهم دلالتها"(16) .

وهذا لا يستقيم ، فكيف يمكن إدراك هذه اللغة؟! فالإعجاز يكمن في شقين : إخبار القرآن عن وجودها، وإطلاع الله نبيه – عليه السلام - عليها، فقد أسمعها وأفهمه، والحكم بأن لغة التواصل الصوتي المكتشفة دون التي سمعها سليمان – عليه السلام - غير ممكن لتعذر المقارنة.

وتشير الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن النمل يتواصل حسب الموقف ، فتارة لتحديد نطاق نفوذها، وتارة أخرى لتدل باقي السرب إلى أماكن الطعام ، أو للتجمع في مناطق جديدة ، ولمسح تفصيلي لمنطقة ما واستكشافها(17) ، وفي قصة النملة مع سليمان – عليه السلام - ما يعضد ذلك، فسياق الآيات أشعر بأن النملة كانت بعيدة عن السرب، فهي رأت ما لم يروه ، و أسلوب تحذيرها قد يكون فيه لفت إلى أنها في مهمة رسمية، وفي ثقنتها بسرعة تنفيذ كلامها إشارة إلى انتظار وتربص بقية السرب لما سترسله، وهذا كله أشبه ما يكون بتفقد الأرض المجهولة الذي تقوم به طلائع الجيوش.

إن عدم الفهم الدقيق للغة التي يتواصل بها النمل لا يكون قدحاً في نصوص القرآن الكريم بحال ؛ إنما هو دليل صريح على إعجازه، فالقرآن الكريم سبق إلى إثبات ذلك، والعلم الحديث لم يجرؤ على نفيه، والقرآن الكريم جعل إدراك هذه اللغة من عظيم الإعجاز الذي لا يوصل إليه، والعلم الحديث لم يستطع سماعها بأدنى درجات الدقة حتى يصل إلى فهمها.

تواصل الطيور في العلم الحديث:

أجريت تجارب كثيرة لتسجيل أصوات الطيور بغية تفسيرها ، وبعضهم قام بإخضاعها للسلم الموسيقي لفهم مراد الطيور منها، وكلها تجارب عديمة الفائدة عند بعضهم(18)، فهي عنده محكومة بنفسية الطائر، فالأصوات التي يصدرها الطائر حال الجوع ليست التي يصدرها حال الخوف ، فلكل حال نغمة تخصه، فالغزل له أسلوبه كما أن الإنذار والتحذير له طريقتة(19) .

ورغم كل الجهود المبذولة في محاولة محاكاة الطيور قصد التواصل معها، وقياس الفروق الصوتية للتمييز بينها ، وحتى مع تربية كثير منها – لم تكن النتائج المرجوة، إلا أنهم توصلوا إلى أمور، منها :

- أن لكل نوع من الطيور عدداً معيناً من الأصوات ، وكل صوت له معنى محدد .

- أن لكل وضع نغمته ونسقه، فبعض الطيور يغني عادة مميّزاً لنوعه، أو تحذيراً من انتهاك أماكن نفوذه.

- أن للطيور طرقاً أخرى للتواصل ، كالأستعراض العجيب، أو عبر علامات بصرية يفهمها الأفراد الآخرون ويدركون معناها⁽²⁰⁾ .

وفي اتساع مفهوم قول الله – تعالى - : (**مَنْطِقَ الطَّيْرِ**) ، عند المفسرين وأهل اللغة إعجاز قرآني دقيق الملحظ ، فقد أشار إلى اختلاف أساليب تواصل الطيور، وألمح إلى تنوع طرق تخاطبها، وإن جعل فهمه وإدراكه من معجزات نبي الله سليمان – عليه السلام - تحدٍ علمي صريح ، فالقرآن الكريم أثبت أمراً سبق به أبحاث الأخصائيين الذين توصلوا إليه بعد قرون كثيرة ، فلم يسعهم إنكاره ، وهم من اعترفوا: " ... وعلى أية حال، ليس هناك بين الناس من يعلم حقاً ما يعنيه غناء الطيور المشهورة بقدراتها الصوتية العالية "⁽²¹⁾ ، فهي على وضوحها وسماع جميع الناس لها لم تدرك ولم تفهم إن في ذكر الهدهد دون سائر الطيور سرّاً لطيفاً ، وفي تفصيل قصته على قصرها إشارات علمية ، فإذا تتبعت طبيعة خلقته، وسُبر غور الألفاظ القرآنية التي بينت حالته، ورُوعيت الظروف المحيطة بها – أدت إلى حقائق مذهشة، تشهد بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم ، وكفى بالله شهيداً.

الخاتمة:

- سعة دلالة اللفظة القرآنية تشير إلى اختلاف وسائل التواصل بين الحيوانات.
- إثبات العلم الحديث للغة يتخاطب بها الطير والنمل أمر شهد به النص المعصوم منذ قرون.
- عجز إدراك وفهم أسلوب التخاطب لدى الحيوان بدقة لا يكذب النص القرآني؛ بل فيه بيان لعظم معجزة إدراكها، تلك المعجزة التي اختص بها سليمان عليه السلام.
- دقة اللفظة القرآنية وسياقها في نقل الواقع، وذلك من خلال سياق قصة مرور سليمان عليه السلام وجنوده وسرعة تعامل النمل معه – تشير إلى خصائص دقيقة في خلقه النمل، تتعلق بالاستشعار بالأخطار وسرعة تناقل المعلومات، مع أن المسألة مجرد لحظات من الزمن.

- الآية القرآنية " ... وعلمنا منطق الطير ... " صريحة في اختلاف أساليب الطيور في التخاطب، وتباينها حسب المواقف والحوادث، وقصة الهدد بسياقها الناقل لخطاب الهدد المحذر الآتي بجديد الأخبار تؤكد ذلك، وهو أمر ما زال العلم الحديث في طور كشفه والتنقيب عنه عبر إجراء المقاربات والمقارنات بين الأصوات التي تصدر من كثير من الطيور.

الهوامش:

- 1 - سورة الأنعام، الآية رقم 38 .
- 2 - ينظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، ت 276 هـ ، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط ، دت؛ 1 / 249.
- 3 - ينظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ت 543 هـ ، راجعه: محمد عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 1424 هـ ؛ 472/3.
- 4 - سورة النمل، الآية رقم 18 .
- 5 - ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ت 1393 هـ ، دار التونسية للنشر، د ط ، 1984م؛ 19 / 236.
- 6 - ينظر: إعراب القرآن، النحاس، ت 338 هـ ، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، 1409 هـ ؛ 3 / 201 .
- 7 - ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ت 538 هـ ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ ؛ 353/3.
- 8 - أخرجه الحاكم ، المستدرك ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، قال الذهبي: صحيح؛ المستدرك بتعليق الذهبي، الحاكم، ت 405 هـ ، علق عليه: شمس الدين الذهبي، ت 748 هـ ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1411 هـ ؛ كتاب الجهاد، رقم الحديث (2485)، 109/2.
- 9 - أخرجه الحاكم، المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي: هذا حديث صحيح؛ كتاب الذبائح، رقم الحديث (7599)، 167/4.
- 10 - علم الحشرات التمهيدي - كتيب معلمي - ، كليفر د . ج . دينيس، ترجمة: علي مصطفى ساطي، منشورات جامعة قارونس، ط 1، 1995م؛ 167.
- 11 - ينظر : سلوك الحيوان، جون بول سكوت، ترجمة: عبد الحميد خليل/عبد الحافظ حلمي محمد، مؤسسة الخانجي، د ط، 1970 م؛ 241-242.
- 12 - ينظر: علم الحشرات، 188.
- 13 - ينظر : دنيا الحشرات ، فرديناند لين، ترجمة: أحمد عماد الدين أبو النصر، دار المعارف، مصر، د ط ، 1971 م؛ 76.
- 14 - المصدر السابق، 86.
- 15 - ينظر: من عجائب الخلق في عالم الحشرات، محمد إسماعيل جاويش، الدار الذهبية، القاهرة، د ط ، د ت ؛ 57-58.
- 16 - من آيات الإعجاز العلمي - الحيوان في القرآن الكريم - زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط 1 ، 1427 هـ ؛ 70_71.
- 17 - الإعجاز في النمل، هارون يحيى - عدنان أوقطار - ، دن ، د ط ، د ت؛ 35-39.
- 18 - حياة الطير، موريس بيرتون، ترجمة: عطا الله خلف الدويني، دن ، د ط ، د ت ؛ 34-35.
- 19 - المصدر نفسه.
- 20 - ينظر : سلوك الحيوان، 244.
- 21 - سلوك الحيوان، 247.